المحاضرة السادسة: الرحلة المتخيلة

هي رحلة لا تتأسس في العالم الواقعي (الفيزيقي) ولا تتطلب معايشة فعلية للتجربة، وإنّما تعتبر رحلات استكشافية تقف فيها الأنا مقابل صورتها (الباطن) عن طريق إسقاط ما هو مادي والالتفات إلى ما هو روحي، فارتبط هذا النوع من التوهم المدون في شكل رحلات بحقول الفلسفة والتصوّف والأدب وقد تخصبت عن طريق التفاعل الثلاثي من جهة، ثم التفاعل مع النقاشات الدينية والمساجلات التي أفرزت مفاهيم وتصورات ذات قدرة على التحاور والتصادم والنمو، إضافة إلى المشهد الثقافي والسياسي الذي كان له دور في توجيه وتلوين التصورات التي ستتحول إبداعيا إلى أشكال أدبية وفنية، جامعة بين أساليب تراوحت بين فنية مرهفة وشبكة رمزية متماسكة وعميقة. (شعيب خليفي، الرحلة في الأدب العربي، ص147).

لم يكن هذا النوع طارئا في فترة معينة ولا حكرا على أمة دون أخرى، وإنما وجد منذ القديم بدءا من جمهورية أفلاطون إلى ابن طفيل والوهراني وابن شهيد والمحاسبي وابن عربي والمعري والكوميديا الإلهية لدانتي، كما تجلى لاحقا في نصوص اليوتوبيا ثم القصص الفلسفي والخيال العلمي.

هناك نوعان من الرحلات المتخيلة التي ظهرت في الأدب العربي، يستندا في تغايرهما إلى مكون الفضاء تحديدا ثم مكون الزمن، إضافة إلى عناصر أخرى.

أ/ رحلات دنيوية:

هي نصوص رحلية متخيلة ترتسم معالمها داخل فضاء دنيوي معلوم أو مرموز إليه في العالم الواقعي الأرضي في الأزمنة الثلاثة وينصب التركيز على مكون الزمن في الماضي والحاضر باعتباره البؤرة التي تحرك النص الرحلي في إطار تقابل المتناقضات، وإضاءة منطقة الحلم/ المثال الذي تتحقق فيه القيم المفتوحة وتسمو الأخلاق وتسود العدالة، وكلها تقديرات نابعة

من الحلم المثالي بواقع آخر يطهّر الحاضر الفاسد، أما الرحلات الدنيوية ذات الزمن المستقبلي فإنها تقوم على تخيل الأحداث في المستقبل داخل إطار إبراز عناصر معينة من الحياة المغايرة لحياة الراهن على مستوى التقدم الحضاري أو الانتكاس؛ وقد سميت بشكل عام بالخيال العلمي. (ص148).

ب/ رحلات أخروية:

تضم عوالم تخييلية مرتبطة بجنوح نحو رسم عوالم الغيب وتخيل وقائع يوم القيامة وتصوير ما يحدث في الجنة والجحيم بأسلوب ترهيبي وترغيبي، وهذا ما قام به الفقهاء في إطار ما يسمى أدب القيامة، ومثال ذلك كتاب التوهم للمحاسبي، أما الجانب الآخر من النصوص التي تناولت الآخرة ارتحالا تخييليا فقد اختارت تيمة مغايرة تتمثل في تخيل ما يقع يوم الآخر من محاكمات للشعراء والأدباء، ومثال ذلك رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والكوميديا الإلهية لدانتي.

يختلف النموذجان في الخلفية التي تبنى عليها الرؤية إلى موضوع الرحلة، فالأولى خلفية دينية إصلاحية، في حين أنّ الثانية خلفية أدبية فلسفية.